كلمات تصف الحياة

أ. أناهيد بنت عيد السميري



كلمات تصف الحياة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله الذي تفضّل علينا بالهدى، فأنزل كتابه، وأرسل رسوله، وشرف حياتنا بوجود كلامه في متناول أيدينا، وييسّر على ألسنتنا أن تنطق بما تكلم به، ولولا تيسيره ما كان ذاك بمقدور لها ولا مستطاع، ثم يسّره للذكر، وأخبر بذلك التيسير عباده، وأكّده لهم بقوله تعالى:

{وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ}[1].

والحمد لله الذي شرَّفنا بسنَّة نبينا تُفصّل ما أجمل كتابه؛ لنسير إليه في طريق نير مضيء، لا ظلمة فيه، ولا اعوجاج، ولا شبهة ضياع!

الحمد لله الذي حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وأقبل بها تطلب النفع والرشاد والنجاة منهما، فإنه في الحقيقة لا نفع إلا في كلام الله ورسوله، وذلك إن وقعا في محل قابل، وإن أول شروط قابلية المحل هو الصدق في إرادة الهدى منهما، ثم البذل لأجل ذلك، وها قد أتانا نبأ أثر القرآن على الجن حين أطلق ألسنتهم فور سماعه بالإقرار أنه كتاب يهدي إلى الرشد، قال تعالى: {قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا (١) يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ}[2].

وكيف وقع نوره في قلوبهم لصدقهم في إرادة الهدى فقالوا: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ}[3]!

وكيف انقلبوا إلى دعاة له فور انقلابهم عن مجلسهم فقالوا: {يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ}[4]!

أما غير الصادقين؛ فكل الحسرة على غير الصادقين، قد حجب الله نور الفهم عن قلب كل مستكبر كذاب، ولا عجب ولا ظلم؛ فإن كلام الله عزيز تؤهَّل لأجله القلوب، وتبذل لحلول بركته الدعوات والأوقات والدموع!

---

(1) [سورة القمر: 17، 22، 32، 40]

(2) [سورة الجن: 1، 2]

(3) [سورة الجن: 13]

(4) [سورة الأحقاف: 31]

لقد امتنّ المنان على الصادقين بشرح صدورهم لفهم كلامه وكلام رسوله-صلى الله عليه وسلم-وما الفهم إلا منّة مِن الله ليس لأحد من الخلق فضل فيه، مهما أوتي من فصاحة الأسلوب، وبلاغة اللفظ، وإلا فما من أحد هو أبلغ ولا أفصح ولا أصدق من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ومع ذلك قال له الله-عزَّ وجلَّ: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ }[1].

وما ذاك إلا لكونهم لم يصدقوا؛ فلم يشرح الله صدورهم لكلامه، مع شدة ظهور كونه تامّ النفع، يهدي للتي هي أقوم، كافٍ لمن اكتفى به!

وعلى هذا يبقى تعبّدنا لله باسمه المنان وتعلّقنا به أن يرزقنا قلوبًا صادقة، مهيأة للفهم والبذار والإنبات، فإنه حرام على قلب كاذب الانتفاع!

بين أيدينا نصٌّ من تلك النصوص النيّرة المضيئة التي يصدق عليها وصْف جوامع الكلم!

كلمات قليلات في المباني، غزيرات في المعاني!

قد اختُزل طول الحياة-بحلوها ومرها، وأعمالها وجزائها-في هذه الكلمات المعدودات الثاقبات للعقل والفؤاد!

عن سَهْلِ بن سَعْدٍ السّاعدي-رضي الله عنه-، قال: جاء جبريل إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-فقال له:

((يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ

ثُمَّ قَالَ: واعْلَمْ أَنّ شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ))[2].

---

(1) [سورة محمد: 16]

(2) رواه الحاكم في "المستدرك" ورواه البيهقي في "شعب الإيمان" ورواه الطبراني في "الأوسط". وحسّنه الألباني في "السلسلة الصحيحة".

هذه الحياة مِنّة مِنْه–سبحانه–فالله هو واهبها، وله وحده أحقية وصفها، سواء بكلامه أو بكلام من أرسله ليضيء الفكر تجاه هذه الحياة، ويضيء تبعًا لذلك طريق السير فيها؛ ولأجل ذلك كان من أكثر الأمور بداهة أن يستقي العاقل علمه عن سبب وجوده، وعن صفة حياته ممن له حقّ وصفها، فالذي خلق هو الذي يعلم، وغيره لا يعلم، قال تعالى: {أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ}(1) .

وهذه الحقائق التي ذُكِرت في الحديث ليست غريبة علينا؛ لكن لو نظرنا للجُمل الثلاث، لوجدنا أن كل جملة هي أقلّ يقينًا في نفوسنا من سابقتها:

فمفارقة الأحباب في قوله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ)) هي أقلّ يقينًا في قلوبنا من مسألة انتهاء الحياة بالموت، وكلما كان الإنسان أقلّ تجربة ظنّ أن محبوباته باقية لا يفارقها ولا تفارقه.

ثم الجزاء على الأعمال في قوله: ((وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ)) هي أقلّ يقينًا في قلوبنا من مسألة مفارقة الأحباب، وكلما كان الإنسان أقلّ تجربة ظنّ أن أعماله التي يعملها ستذهب دون أن يُجزى عليها في الدنيا، ومن باب أولى أنه يغفل عن جزاء الآخرة.

هذه الأمور الثلاثة: (ذِكْر الموت ، وتصوّر الفراق ، وتذكّر الجزاء) لاشكّ أن لها بالغ الأثر على حياتنا، ولاشكّ أن هناك ما يجعلنا نهرب من التفكير فيها، ولأجل ذلك نحاول أن نقف على أعتابها، ونستقي من ريحانها:

قوله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ))

الموت حتْمٌ لازمٌ لا محيد عنه لكلّ حيّ، والله تعالى يذكّرنا به في كتابه، ورسوله —صلى الله عليه وسلم–يأمرنا بتذكّره، فلا شكّ إذًا أن بقاء ذِكره فيه من مصالح الدنيا والآخرة ما فيه، ومع ذلك فإنك تجدنا نسعى جاهدين للهرب من ذكره! فما سبب هذا الخوف منه؟

---

(1) [سورة الملك: 14]

لو بحثنا قليلًا في أغوار نفوسنا لوجدنا أن من أعظم ما يسبب الخوف منه هو تعاملنا معه بصورة وسواسية، مما يحول ذِكْره إلى عائق، وقاطع عن العمل، في حين أنّه يجدر بذكرى الموت أن تفتح للمتذكر بوابة ما بعده من لقاء الله، ومرحبًا بلقاء الله، يصبر العبد على الموت ويحتمله حتى يفوز بذاك اللقاء!

هذه المشاعر تعيد تركيبة الحياة إلى وضعها الذي ينبغي أن تكون عليه، فتصلح عليها حركات هذا المخلوق–الذي لم يخلق إلا ليكون موصول المشاعر بخالقه–وتصلح عليها سكناته، وتصلح عليها أفكاره وخواطره، وتصلح عليها أخلاقه وعبادته، ودنياه وآخرته، ويصبح تذكر الموت دافعًا له للعمل، لا مثبطا له عنه.

خمس نقاط تجعل ذكر الموت يصلح الحياة:

النقطة الأولى: **جعْل ذِكْر الموت مِن الإيمان وليس مِن الشيطان:**

الشيطان يجعل ذكر الموت وسواسًا يُرهب ويخيف، حتى يمنع عن الحركة، ويشلّ التفكير؛ فيتحوّل الفؤاد المخلوق لنور المعرفة والشوق إلى لقاء الله إلى مرتع للوحشة والاكتئاب، ويتداعى له البدن بالفتور والعجز والكسل؛ حتى ليحسبه الرائي قد استُهلك من المرض، وما به من علة إلا ذاك!

وفي الحقيقة؛ لا يجدر بمن يعلم أن وراء الموت لقاء الله أن يخاف؛ فالمحبّ لا يكره لقاء مَن يُحبّ، بل يستعدّ ليكون خير لقاء، وإنما يكره اللقاء من ركن إلى الدنيا، وتاهت روحه عن مأواها، فظنّ أنّ الأرض هي مستقرّها، فلابدّ له بعد ذلك من كراهة أن يصير إلى الله والدار الآخرة التي يجهلها، والمرء عدو ما يجهل، وصديق ما يعرف.

عن عائشة–رضي الله عنها–قالت: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ)) قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: ((لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ))(1)، وقال–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ، جَاءَهُ الْبَشِيرُ مِنَ اللهِ–عزَّ وجلَّ–بِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبُ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لَقِيَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ))(2).

إذًا؛ المقياس ما أثر ذِكْر الموت عليك؟ هل تستعدّ وتشمّر، أم تكتئب وتتوقف؟!

---

(1) أخرجه البخاري معلقاً بعد حديث (6507)، وأخرجه موصولا مسلم (2684).

(2) رواه أحمد في مسنده، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فإذا رأيته قد ترافق ذكره مع الاكتئاب والشلل، والتخلّي عن دوره المنشط للعمل؛ فهي أمارة على أن باعثه هو الشيطان لا الإيمان، وليس الحلّ في هذه الحال هو الهروب من ذكره؛ فالموت حقيقة قادمة على كل حال؛ إنما الحل في المبادرة بدفع وسواس الشيطان، وجعل الاستعاذة هي الديدن والصاحب الملازم، والثقة أن الله لا يخذل من استعاذ به من عدوه، واستعان به عليه، كيف وقد خلقه لتقع منه أمثال هذه العبوديات؟!

لاشكّ أن الإنسان عند الموت يكون في موقف صعب، يخاف فيه مما يستقبل، ويحزن على فراق من سيفارق؛ ولكن الله تعالى يرسل لمن آمن وعمل صالحًا في هذا الموقف ملائكته تؤمّنه، وتبشره: لا تخف من الآتي، ولا تحزن على الفائت؛ لا خوف عليك ولا حزن بعد الآن، نحن أولياؤك في الدنيا والآخرة!

قال تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلا مِّنْ غَفُور رَّحِيم}(1).

الموت لا يكون مُخيفًا إلا على مَن استقبلته ملائكة العذاب كما في الحديث: ((وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ))(2) أما من تستقبله ملائكة الرحمة، كما في حديث رسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلاَئِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ-عَلَيْهِ السَّلاَمُ-حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ. قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ...))(3)؛ فإن مثل هذا لا يخاف من الموت خوفًا يخرج عن الحدّ

(1) [سورة فصّلت:30-32]

(2) رواه البخاري في صحيحه، وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " :مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ ". فَقَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ. قَالَ: " لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ ."مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(3) رواه أحمد في مسنده، قال الشيخ الألباني: (صحيح)

الطبيعي، وعلى هذا؛ فلا بدّ أن يضع المؤمن هذا الأمر نصب عينيه، فيسعى لأن تكون ملائكة الرحمة هي من يستقبله، ثم كلما أخافه الشيطان من تذكّر الموت قابل خوفه بتذكّر هذا الاستقبال، واستعدّ لذلك بالأعمال الصالحة.

وليعلم أن أوسع باب يُدخل منه على الله هو باب الصدق في الاستغفار والتوبة والعمل.

النقطة الثانية: **تعلُّم حقائق اليوم الآخر يساعد على التخطيط للأعمال التي يجب فعلها استعدادًا له:**

تتحول الحقائق إلى يقين حين نبذل لأجلها عنايتنا؛ فنحولها من معلوم إلى شعور؛ فإنه كلما ضعف الشعور بالحقائق ضعف اليقين، والموت من أكبر الحقائق التي تمسّ حياتنا تفكيرًا ومشاعرًا وتأثيرًا، ويفترض عقلًا وشرعًا أن يكون لها أعلى الخطط؛ فكيف يصحّ أن نتركها مجهولة غريبة عن مشاعرنا، والمرء عدوّ ما يجهل؟!

لو سُئلنا الآن عن وصف القبر؛ لما تعدّى جوابنا أن يكون: هو ضيق وتراب!

ولو سُئلنا كيف سنُعَامل حين ننزل ذلك المنزل، ومن سيستقبلنا أول وفادتنا، لاحتار اللسان بالجواب!

وكأن ما سنواجهه هو معلومات، ومسابقات، وليس حقائق تستلزم تخطيطًا وعملًا واجتهادًا، ومعاملة على درجة عالية من اليقين!

إنّ التفكير في معلومة تقول إن الملائكة تبشّر عامل الصالحات بأعظم البشارات؛ تجعلنا لا نعيش الحياة ونحن نتمنّى على الله الأماني، وإنما نبذل جهودنا لنكون من أولياء الله: {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}[1]، {إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ}[2].

- تجعلنا نعمل أعمالًا لينادي ((مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ))[1].

(1) [سورة يونس: 63]

(2) [سورة فصلت: 30]

- تجعلنا نعمل أعمالًا لنكون ممن: ((يَمْثُلُ لَهُ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ..))[2].
- تجعلنا نعمل أعمالًا لنكون في ظل صدقتنا حين تقترب الشمس مِن الخلق يوم القيامة ((كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ))[3].
- تجعلنا نعمل أعمالًا لنكون حين يخرج الناس عطاشًا، ويقبلون على حوض نبيهم-صلى الله عليه وسلم-فيَرَدُ بعضهم، ويُرَدُّ بعضهم من الواردين لا من المردودين، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-: ((إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ وَسَيُؤْخَذُ أُنَاسٌ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي. فَيُقَالُ أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ وَاللَّهِ مَا بَرِحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ))[4].

تجعلنا نخطط ونعمل ونجتهد، والناظر في أحوال أهل الدنيا يعرف كيف يعامل الناس المهمات من أمور حياتهم؛ فليس التخطيط بأمر بعيد عن قدراتهم، ولكن الخلل في معرفة وتمييز المهمات.

الآخرة هي أهم مراحل الحياة؛ فلا تجعلها من مجهولاتك، وتجعل الدنيا هي كل معروفاتك!

---

(1) سنن أبي داود، قال الألباني: صحيح.

(2) رواه أحمد في مسنده، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

(3) المستدرك على الصحيحين، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(4) متفق عليه، وهذه رواية مسلم.

النقطة الثالثة: حسن الظنّ بالله:

ورد في الحديث: ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ))[1].

ولكي يصبح حسن الظنّ بالله قويًا؛ لابدّ من معرفة رحمته ورأفته–سبحانه وتعالى–، يقول الله تعالى في سورة البقرة: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ} هذا موقف من استفرغ جهده؛ فباع النفس وأرخصها، طلبا لرضا الله، فبأي شيء ختم سبحانه الكلام عنه؟ قال: {وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ}[2] الله رؤوف؛ ما إن يجد في قلب عبده صدقًا في طلب رضاه، وتعلقًا به؛ إلا ويرأف بحاله، ويوفقه إلى ما يحب ويرضى؛ فلا يراودنَّ أحدًا ظنٌّ أنه يقْبِل جادًا، ويبذل جهده، ويستفرغ قواه؛ ثم لا يعامله برأفته؛ فقد أخبر وهو الحق سبحانه، وقوله الحق؛ أنه يعامله بتمام رأفته، وسيناله من كرم الكريم فوق ما يتصور.

النقطة الرابعة: دَفْع قُطّاع الطريق:

كل شخص منَّا يعترضه من يقطع عليه طريقه على اختلاف نوعيات قطاع الطرق، وهذه نماذج لأكثر الذين يعترضون طريق سيرنا إلى ربنا:

أولًا: النفس وهواها.

قال تعالى: {فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ}[3] يقول ابن كثير رحمه الله: " لَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ مَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَلَاذِّهِ فِي دُنْيَاهُ، وَعَصَى مَوْلَاهُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ"[4]، ولقد أحسن رحمه الله؛ إذ أي خسارة أكبر من موافقة مثل هؤلاء؟!

(1) مسند الإمام أحمد، وصحيح ابن حبان، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(2) [سورة البقرة: 207]
(3) [سورة طه: 16]
(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

وقال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ}(1). وقال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدى مِّنَ ٱللَّهِۚ}(2). وقال تعالى: {وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ}(3). وقال عن رسوله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ}(4).

وغير ذلك مما نهانا الله تعالى فيه عن اتباع الهوى، وبيّن لنا أن الباطل والضلال والتردّي أساسه اتباع الهوى، وأنّ الحق والصواب والسموّ أساسه نهي النفس عن الهوى.

أساس الفلاح أن تطهّر هذه النفس من أدران شهواتها، بمجاهدة هواها، والإقبال على مولاها، ولو اعتنى الناس بقلوبهم التي هي محطّ نظر ربهم إليهم بقدر اعتنائهم ببيوتهم، وفرشهم، وملبسهم، ومطعمهم؛ لما أصبح الموت هاجسًا مخيفًا لهم، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني!

الهوى له جولات يزين فيها التردي في وحول المعصية؛ فلابدّ من ساعة صبر تحملنا على تجرع المرارة وقت تسلطه، لابد من عزيمة ماضية، وملاحظة للعاقبة في تلك اللحظة الحاسمة، وما النصر إلا صبر ساعة!

أنت لم تخلق للهوى؛ إنما هُيِّئت لأمر عظيم، لا تناله إلا بمخالفة الهوى، خلقت لتعرف ربك وتعبده، وتدخل جنته، ولم تخلق لتسقط نفسك في مهاوي الهوى، ولتعلم أنه ما أطاع أحد هواه إلا وجد في نفسه ذُلًّا، فلا تغرّك مظاهر أهل الهوى؛ فإنما هي صور يخدعون بها أنفسهم والسذج ممن حولهم.

يكفيك أن تعلم أن الشيطان ليس له مدخل على المؤمن إلا من باب الهوى، فإنه يأتيه من نقطة ضعفه، حتى يفسد عليه دينه ودنياه، وما أنجع الاستعاذة بالله منه في تلك المواقف.

---

(1) [سورة النازعات: 40، 41]
(2) [سورة القصص: 50]
(3) [سورة ص: 26]
(4) [سورة النجم: 3]

ثانيًا: الصحبة.

مِن أخطر المعيقات تأثيرًا الصحبة، ومن أكثر المعينات تأثيرًا الصحبة، فلا ينبغي الاستهانة بأمرها أبدًا.

قد يصل المرء إلى مرحلة النضج مبكرًا–نتيجة لصحّة التفكير والتدبّر والتأمّل–ويرى زملاءه الذين يعيشون معه لا زالوا في مرحلة الطفولة مِن جهة تعلّقهم بالدنيا؛ فيصدر منه من نصيحتهم ما يصدر من الرفيق الرفيق بأصحابه؛ أن ليس علينا أن نتعلق بهذا كله؛ فإنّا عنه ذاهبون، وله تاركون؛ فينقلبون عليه انقلابًا: أنت مكتئب وتريد أن تنغّص علينا الحياة! ثم لأجل أن يعالجوه يعرضون عليه الدنيا بحذافير زينتها، وخوادع زخرفها؛ فيخرج مشوش الأفكار بين ما معه من الصواب وما معهم من مثيرات الاكتئاب!

لا يهتزّ ما معك من الحقّ أمام زخارفهم، واصمد بما متعك الله من النضج العقلي الذي يُسهّل عليك أن لا يأخذك أحدهم خلفه، وانشغل بما يعينك على الثبات في الطريق الذي نهايته النجاة والفوز العظيم، ومِن أهم ما تنشغل به لتدفع عنك قطاع الطرق–بأنواعهم–هذه الأمور:

أهم ما تنشغل به لتدفع عنك قطاع الطرق

أولًا: التعرّف على الله، والاستعداد للقائه:

أ–بالعلم عن الله تعالى يدفع العبد الخطر عن نفسه؛ فكلما تعلم عنه أكثر؛ أوى إليه أكثر، وجعله ركنه الشديد؛ فآواه وكفاه، وسدده في حياته، وجعله ناضجًا في تفكيره، فلا تأخذ الأمور مساحة أكبر من حجمها من غالي حياته ومشاعره، ولا يتشوف ويشتاق للدنيا حتى يقضّ مضجعه اللهث وراءها ووراء أهلها؛ ويعلم أن كل ما كتب له آتيه.

ب-الاستعداد للقائه سبحانه، وأن لا يغيب عن العبد أن الله تعالى يدخله يوم القيامة في كنفه؛ فيكلمه ليس بينه وبينه ترجمان: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، وَلاَ حِجَابٌ يَحْجُبُهُ))[1].

تعرّف على الله وعلى ما عند الله، تصور جنة عرضها السماوات والأرض، وتصور فروق المنازل عند الله، وكما أنك تحرص على علو المراتب والشهادات في الدنيا؛ فلا تزهد بعلوها في الآخرة، وقد أخبرك نبيك-صلّى الله عليه وسلّم-بهذا الخبر الذي هو جدير أن يبعث أشواقك من مكامنها: ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَرَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمَا)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: ((بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ))[2].

ذاك الذي تذهب النفس عليه حسرات إن فات!

قال تعالى: {وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ}[3] خوّفهم يوم الحسرة حين يقضى الأمر، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته!

ولهذا في سورة الفجر: {يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي}[4] يقول متحسّرًا على ما فرط في جنب الله: يا ليتني قدمت لحياتي الحقيقية!

ابْقَ ذاكرًا على أي شيء ستُقبِل؛ قال علي-رضي الله عنه-: "ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ، وَلاَ حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ، وَلاَ عَمَلَ"[5].

(1) أخرجه البخاري (7512)، ومسلم (1016)، والترمذي (2415)، وابن ماجه (185) واللفظ له، وأحمد (18246).

(2) رواه البخاري في صحيحه (6555) ، ومسلم في صحيحه (2831)

(3) [سورة مريم: 39]

(4) [سورة الفجر: 24]

(5) أخرجه البخاري مختصراً معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث (6417)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (10614) واللفظ له.

ثانيًا: التعرّف على الدنيا:

إنّ مِن أعظم الأمور التي لا بد للإنسان أن يسعى جاهدا لتحصيلها هو معرفة حقيقة الدنيا، وذلك لما لهذه المعرفة من أثر مباشر على تفكيره وقراراته، وتوجهاته، وإن أفضل ما يعرفه بحقيقتها هو كلام الله تعالى.

قال تعالى واصفا لنا الدنيا وصفًا يجعلنا نسارع بالنضج، وإيثار ما يستحق الإيثار: {ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ}[1].

حصرت الدنيا في خمسة أمور: اللَعِبٌ، واللَهْوٌ، والزينَةٌ، وَالتَفَاخُرٌ وَالتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، ففي فترة من الحياة يكون الإنسان لاعبًا، ثم لاهيًا، ثم تكبر الاهتمامات لتصرف على الزينة، ثم على التفاخر ثم على التكاثر.

أو تكون هذه الخمسة معًا؛ فالبدن لاعب، والقلب لاهٍ غير مهتم إلا بالزينة الخارجية، وكل التفكير في الفخر على الغير، ثم يدخله هذا في التكاثر.

بهذا اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر يحوّل الإنسان الشيء التافه الذي لا قيمة له إلى شيء له قيمة؛ حتى إذا قيل له: خطط لقبرك وللأنس فيه، قال: لا تنغّصوا عليَّ الحياة!

لم يَدْرِ أنّ كلّ ما في الحياة {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ}: زرع بهيج، ثم يهيج!

ما هو إلا أن تراه عيناك أخضر غضًّا نديًّا؛ وإذ به مصفرًّا، ثم يكون حطامًا! ولو كان حطامًا وانتهى لهان الأمر؛ لكن في الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، فلا يوجد غير واحد مِن هذين الطريقين، والعاقل يسعى في نجاة نفسه، ولا يغيب عن باله حسن تذكير ربه له بأن دنياه ما هي إلا متاع الغرور: {وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ}.

---

(1) [سورة الحديد: 20]

وكم أخبرنا سبحانه أنها متاع الغرور، وكم أعرضنا عن التفكر في هذا المعنى الذي يجعل حقيقتها سافرة لكل ذي عينين؟!

تصوّر أنّ رجلًا ذهب إلى سوق ينعقد مرة واحدة في العام، واشترى بكل ماله متاعًا ثمينًا، ثم عاد إلى بيته فرحًا بما اشترى، وفتحه ليمتّع قلبه بما دفع فيه جنى العمر؛ فوجده فاسدًا لا يصلح لشيء، فانتفض مذعورًا، وعاد مسرعًا يريد استدراك ما فاته؛ لكنه مع بالغ الأسف عاد متأخرًا؛ بل عاد بعد فوات الأوان!

لقد انفضّ السوق، وعاد كل امرئ بما ربح، وعاد هو مغشوشًا، قد غرّ في المال والعمر!

أهناك ما يصف مشاعره حينذاك؟!

هذه هي صورة الذي يجري وراء الدنيا؛ حتى إذا جاءت لحظة الموت وجد أن الدنيا قد غرّته وغشّته، وأن ما ظنّه نافعًا لا ينفعه، ولكنه ما تفطن إلا بعد انفضاض السوق، ولا تسَلْ حينها عن ذهاب نفسه حسرات؛ إذ لا فرصة أخرى تعوّض ما فات من الخسارات!

قال-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((لمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))[1]، كل النعماء التي تعرفها والتي لا تعرفها منذ خلقت الخليقة إلى قيام الساعة لا تساوي نصف متر في الجنة، وهذا مما يزيد حقارة الدنيا في القلب، ويزيد الشوق إلى الجنة.

وقال-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))[2] غدوة أو روحة تعني الجهاد أو أي عمل مِن أجل الله، خير مِن الدنيا وما فيها، وقد أخبر-صلَّى الله عليه وسلَّم-أن ركعتي سنة الفجر خير من الدنيا وما فيها.

وقال-صلى الله عليه وسلم-لعبد الله بن عمر: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))[3] وكان ابن عمر يقول: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ"[4].

---

(1) أخرجه البخاري (6415)، والترمذي (1648) مطولاً، وابن ماجه (4330) باختلاف يسير، وأحمد (22797) واللفظ له.

(2) رواه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، 6415)

(3) أخرجه البخاري (6416) ، والترمذي (2333)، وابن ماجه (4114)، وأحمد (4764) باختلاف يسير.

(4) رواه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، 6416)

الحياة الحقيقية في دار القرار، والنضج الفكري هو الذي يجعل هذه الرؤية واضحة في القلب، فحين ينضج المرء عقليًّا يرتقي من الداخل، ولا يستطيع التمتّع بذاك الذي في الأسفل.

انظر–بعد أن نضجت–إلى ألعاب الأطفال ماذا تُحرك من مباهجك؟

انظر–بعد أن نضجت–إلى بكاء طفلك الذي منعته من زيارة زميله، كيف تراه يضخم ما لا قيمة له، وقد كنت يوما تراه ذا قيمة!

هذه هي الدنيا تمامًا، ما كان يمتعك بالأمس يفقد قيمته اليوم، وما كان يسوؤك بالأمس يفقد أهميته اليوم، واللذة لم تتغير؛ ولكن النضج يعطي الأمور حجمها؛ فيقلل من قيمة التوافه، ويرفع من شأن المهمات، فتكون النتيجة الزهد فيما لا يستحقّ العناء، وتأتي اللذائذ؛ لكن من منابع أعلى وأرقى وأسمى.

إنّ نسمة مِن نسائم الحرم تدخل أنفاس المؤمن تشعره أنه ملك الدنيا، والناس مشغولون عن هذا بزحام الطواف وأحلام العودة إلى لهوهم!

أن تحدث الفروق في النضج بين الصغار والكبار هو أمر محتمل؛ لكن العتب حين تجد الكبار لاعبين!

الناضج يعلم حقيقة الأمور؛ فلا تأخذ التوافه الفانيات عنده حجما أكبر مما تستحق، وذلك لأنه عرف الله، وعرف الدنيا من أوصافها التي وصفها له ربه، ووصفها له رسوله–صلى الله عليه وسلم–، وعرف أن كل شيء مكتوب فيها كما قال تعالى في سورة الحديد: {مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (٢٢) لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ }[1] فالمكتوب سيأتيه وسيذوقه، وغير المكتوب لن يأتيه، فلا يحزن هنا ولا يصل هناك لدرجة الغرور لأنه ملك شيئًا.

(1) [سورة الحديد: 22، 23]

ثالثا: معرفة الناس وقدرهم وثقلهم في ميزان النفس:

في فترة من فترات العمر نتيقّظ ونتفطّن لنجد أننا نعطي الناس من أنفسنا فوق ما يستحقّون؛ فنسترضي هذا، ونحذر غضب هذا، ونشتري خاطر ذاك، حتى إذا ما أتت الحقوق أهملناها لأجل المجاملات، وضيّعنا حقّ الله وحقّ أنفسنا، ولا رضي من طلبنا رضاه، ولا هدأت ثورة من اتقينا غضبه.

قال الفضيل بن عياض: "مَن عرف الناس استراح، فلا يطرب لمدحهم ولا يجزع لذمهم، فإنهم سريعو الرضا سريعو الغضب والهوى يحركهم" ا.هـ

لو أكرمتهم قالوا: أسرف، ولو اقتصدت قالوا: بَخِل، ولن ننتهي! وهذا لا يعني هجران معاملة أهل الحقوق؛ وإنما يعني معاملتهم لأجل الله؛ فليس الذي يُطلب ويسعى إليه هو رضاهم؛ وإنما هو رضا الله فيهم!

إن الذي يغفل عنه الكثير هو أن الله تعالى إن رضي أرضاهم، وأن الله تعالى لم يخلق الناس لتنشغل برضاهم عن رضاه!

قال-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ))[1].

فإذا رأيت أحبابك قد تغيرت قلوبهم عليك؛ فتعلق أولًا بمن يملك القلوب، واسأله أن يشرح الصدور، وأن يوفقك للوصول إلى ما يرضيه؛ فيصبح غضبهم عليك بابًا من أبواب العبادات؛ فهم يغضبون وأنت تعبد الله بسؤاله أن يُعيد قلوبهم إليك، وبهذه المعاملة تتحول علاقتك بهم من علاقة صادة عن طريق الله إلى علاقة ممهدة للطريق، في حين أن التوجه لهم مباشرة يوشك أن يحدث مشكلة حقيقية مشغلة عن الآخرة!

الدنيا لا تُغتنم بجعل الأمور منك إلى الناس، وإنما غنيمة الدنيا بجعل الأمور منك إلى الله، ثم من الله إليهم!

تحت هذا الفهم تحرك، وفي هذا الميدان استثمر، وبهذا الكرم تاجر!

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، 2654)

اجعل ذِكْر الموت من الإيمان، ثم تعلّم عن الحقائق التي ستلقاها، واجتهد لأن تكون في أُنْسٍ في قبرك، اجتهد للحظة التي تسْكَر فيها العقول وتغيب، واعلم أنك ستعمل لحظة الموت ما كنت معتادًا أن تعمله، فاحذر أن تكون معتادًا على الاهتمام بآراء الناس وأوضاعهم، غافلًا عن الذكر والشكر، فما تعدّه مهمًّا في حياتك سيكون مهمًّا حين يغيب عقلك، وعند الموت تظهر الحقائق[1]!

تعرف على صفات العبد الذي يُؤنس في قبره، وتكون سكرة موته على ما يحب الله، فيكون ممّن تستقبلهم الملائكة بالبشرى التي ما بعدها بشرى: لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون!

خطِّط لأعمال تؤنسك في قبرك، خطّط لأعمال تجعلك مِن الصدّيقين، من المحسنين، من المتقين.

وكما ترى أثناء قراءتك لكتاب الله أنَّ هناك مَن يُبشر بالمغفرة وبالجنة، فانظر لصفاتهم التي وردت في القرآن، ولا تَعْدُ عيناك عنها، وابذل غالي جهودك لتتحلّى بها، ولا تجعل كلّ همّك في حياتك مطالبك الدنيوية؛ فتجد نفسك من أول ما عرفت الدعاء وأنت تفكّر بالدنيا وتدعو لأجلها؛ وكأن الآخرة هي آخر ما يهمّك، وكأنّ مضي الأيام المتسارع لا يدنيك حثيثًا منها[2]!

لا تكن من أولئك الذين تعرف قلوبهم مهمات المسائل؛ ثم تلتفت عنها إلى توافهها!

لا تكن ممن تأتيه الأخبار تلو الأخبار، والمواقف تلو المواقف، ترشده إلى الله والدار الآخرة؛ ثم يعاملها كأنما أنزلت لغيره؛ والسبب حبّ الدنيا، فاللهم اجعل حبّك أحبّ الأشياء إلينا!

ألا إن المثمنين لحياتهم قليل، والمرخصين لأعمارهم كثير، والله ولي التدبير، وإليه المصير.

---

(1) وهذا مثال يبين الأمر: امرأة راقدة في المشفى وقد كان دأبها في أيام صحتها الاهتمام بالضيوف، ومع كل آلامها لم يفارقها هذا الاهتمام بزائريها؛ فلا تزال تشير إلى بناتها أن أكرمي هذه، وافعلي لهذه، ومهما طلب منها أن ترتاح لا تستطيع لأن هذا هو ما يغلي في قلبها! وهكذا لحظة الموت! فيمَ كنت تهتم؟ فيمَ كنت تفكر؟ لحظة الموت سيخرج هذا.

(2) لا مانع من طلب الدنيا والآخرة: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}. لكن غير المقبول هو أن تكون الدنيا أكبر همّك.

النقطة الخامسة: **استعمال عبادتي الاستعانة والاستعاذة:**

مما يجعل الموت مُصلحًا للحياة: استعمال عبادتي: الاستعانة والاستعاذة.

الاستعانة: وهي غاية في الأهمية؛ فإن (إياك نعبد) لا تأتي إلا مع (إياك نستعين)، والأمر يحتاج إلى تدريب على طلب العون على الأمور، قال-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ)) فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ لَهُمْ: ((قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا))[1]. هنا أرشدهم النبي-صلى الله عليه وسلم-للاستعانة بالله، والتوكّل عليه؛ لأجل أن يكفيهم ما أهمهم، ولا شكّ بأنَّ الآخرة هي الهمّ الحقيقي لكل مسلم، هي الهمّ الجدير بقلبٍ شرَّفه الله بشرف الإيمان به؛ فرفع لأجله بصره إلى السماء وقال: اكفني ربي ما أهمني من أمور الآخرة؛ فما بي قوة على عذابك، ولا بي طاقة على سخطك وإبعادك!

إنّ مبدأ الأمر ومنتهاه هو التعلق بالله، ودوام الاستعانة به، وحقيقته أن تكتفي بالله، وتسأله أن يرشدك إلى أعمال صالحة تكون سببًا لنجاتك وقت ما تلقاه.

الاستعاذة: عمل الشيطان هو إدخال المؤمنين في الأحزان لأي سبب من الأسباب {لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ}[2] فيحزنهم على فقد المال، وإن وجد المال أحزنهم على فقد الولد، وإن وجد الولد أحزنهم على عدم نجاحه في حياته، وهذا دأبه معهم في كل تفاصيل أمورهم، ومن ذلك مسألة الموت: يذكرهم به ذكرى شيطانية، تجعلهم يخافونه، ويتحاشون ذكره؛ ولأجل ذلك كانت الاستعاذة من الشيطان من أنجع وسائل محاربة هذا التخويف، مع التذكر الدائم أنه يمكن للميت أن يأنس أكثر مِن الأحياء!

قال أحد الشعراء يعزي نفسه في وفاة أحد أبنائه:

---

(1) رواه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده، وقال الألباني: صحيح.

(2) [سورة المجادلة:10]

جاورتُ أعدائي وجاور ربه   شتان بين جواره وجواري[1]

شتان بين من جاور بشرًا يتشاحون على النقير والقطمير، ومن جاور ربه مالك الملك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين!

هذا لمن عَرَفَ حقيقة الموت، وعَرَفَ أنه ليس مجرد عدم؛ فاستعدَّ له بالعلم عما سيواجه، والعلم مسطور في الكتاب والسنَّة؛ فلا حجّة عند الله لغافل عنه، وهو يعلم أنه قد أعطي فرصة واحدة خطيرة؛ إما يزرع فيها زرع الآخرة، أو يضيع الربح ورأس المال، والتضييع درجات، والتجار أصناف؛ كلٌّ يغدو؛ فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها.

---

(1) القصيدة لأبي الحسن التهامي الحسني –رحمه الله –رثاء لابنه والتي يقول في مطلعها:

حكم المنية في البرية جار** ما هذه الدنيا بدار قرار

الجملة الثانية من الحديث: ((وَأَحْبِبْ مَنْ شئت فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ))

كثير من الناس يتوهّم أنه حين يكبر سيتوقف عن حبّ الدنيا دون أن يسبق له معالجة لنفسه، في حين أن الواقع ينبئ أننا لن ننفك عن حب الأشياء، والتعلق بها، إلا بالتقوى، ويؤيد هذا حديث النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ))[1] ومن هنا تأتي أهمية هذا العلاج النبوي الكريم: أحبب من شئت فإنك مفارقه!

هذه المحبوبات التي شغلت القلوب أغلبها دائر حول الدنيا؛ ولذا يُقال: ((فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ))؛ سواء كان متعلّق هذا الحبّ أشخاصًا، أو أموالًا، أو أماكن، أو أوضاعًا معينة، فلابدّ من فراقها، وإنّ مِن عجيب تدبير الله ما قدر في الأحداث والقلوب من ألوان وأنواع للفراق قد يكون الموت أعلاها وقد لا يكون!

إنّ الذي خلق القلوب وملكها لا يرضيه أن تدور في فلك غيره؛ لعلمه أنها إن فعلت تضيع!

يكفيك لتحكم على المحبوبات أنها لا تستحق كل تفكيرك يقينك أنها زائلة عنك، أو أنت زائل عنها، والمرء يرى كيف يكون للناس أحباب أخلاء قريبون، قد سكنوا القلب وأشغلوه، ثم بعد زمن يسير يتحول ذاك المحبوب إلى عدوّ، ويحصل مالا بد منه من الفراق: (فإنك مفارقه)!

بل يرى المرء كيف يكون للناس أولادٌ فلذة من أكبادهم، لهم القلب كله أو جلّه، ثم يزوجونهم؛ فيقلبون لهم ظهر المجن، ويتركونهم يرون الهلال والهلال ولا يرونهم! وهذا وإن كان من الجهة الشرعية قطيعة؛ لكنه من الجهة الكونية يندرج تحت "أحبب من شئت فإنك مفارقه"!

وكم مِن الزملاء وصلوا في علاقاتهم لأعلى الدرجات، قلوبهم جميعًا وأبدانهم، ثم تبقى الأبدان، وتصبح القلوب شتى، ويتحوّل الحب إلى عداء!

ويتغنّى الناس ويتحسّرون على ذهاب الوفاء، وما علموا أنّ الله توعّد مَن ملأ قلبه محبة لغير الله أن يعذبه بذلك المحبوب.

وحقٌّ لله ذلك؛ إذ كيف يقول عاقلٌ لمن خلق قلبه لشرف التعلق به: لا أريد هذا الشرف، يكفيني من المحبوبات كل ما هو دنيّ؟!

---

(1) رواه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر، 6420)

قال-سبحانه وتعالى-: {قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ }[1].

والجهاد في سبيله يبدأ بالجهاد الأكبر، وينتهي بالجهاد الأصغر، وفي الأثر: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[2] فمجاهدة العدو هي الأصغر، ومجاهدة النفس، وحماية القلب من أن يدخل أحد إليه فيزاحم حب الله، هو الجهاد الأكبر.

إن لكلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، معنى عظيمًا، ومدلولًا كبيرًا، يحمي القلب، ويبني حوله سياجًا من الأمن تجاه أي معتد يتطاول ليتبوأ مكانة ليست له، وما ينبغي أن تكون له، وإنما القلب كله للإله المحبوب المعظّم وحده، ولو حدث وتعلق القلب بغير الله؛ فليعالج صاحب ذلك القلب الذي حاد عن الجادة نفسه بقوله تعالى: {فَتَرَبَّصُواْ}!

هل يعني هذا أن لا تكون لنا علاقات مع الخلق؟

ليس هذا هو المقصود؛ فإنّ الله تعالى قد زيّن لنا شيئًا من الشهوات؛ لكن هناك حدّا طبيعيًّا، والذي ينبغي التركيز عليه هو أن لا يحدث ذاك التعلق الذي يجعل أحدًا من دون الله هو محور الحياة، والفَلَكُ الذي تدور حوله، وليعلم أن مثل هذه العلاقات غالبًا ما تنحرف، فعلى المرء أن يرحم نفسه مِن أن تتحول محبوباته إلى سبب لعذابه؛ فلا يجعل قلبه مشغولًا بها، ونفسه رهينة لها؛[3] بل يتناولها بالقدر الذي يكفيه.

---

(1) [سورة التوبة: 24]

(2) نقل السيوطي في [الدرر المنتثرة] عن ابن حجر، أنه قال في كتابه [تسديد القوس] في كلامه على هذا الحديث: (هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة في [الكنى] للنسائي)

(3)سؤال: هل يدخل في ذلك الدعاء لهم للأولاد والصدقة عنهم بالخفاء؟ هل هذا يدخل في التعلق؟

الجواب: لا يعتبر تعلقًا والله أعلم، فلو تكلمنا عن أبنائنا مثلًا، نجد أنّنا نحب لهم الهداية، وهذا ليس تعلقًا بقدر ما هو حب لله، فنحن نحب لهم الهداية ونحبها لأولاد المسلمين أيضًا، وعلى سبيل المثال لو رأينا شبابًا يدخنون، فندعو لهم بالصلاح والهداية، ونرجو مِن الله أن يردّهم إليه ردًّا جميلًا، فنحب الهداية ونحب أن يكون الخلق عبيدا لله، نبدأ من الأقربين للأبعدين، صحيح أنها أقوى في الأقربين لكنها أيضًا للأبعدين.

تأمّل مَن تصاحبه مِن الإخوان عالما بأنه لا بد مِن مفارقته، فلا تسكن إليه بقلبك، ولا تطعه فيما يعصي به ربك، فإنه لابد من فرقة الأخلاء كلهم إلى يومٍ قيل فيه: {ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ}[1] فإن كان ولابد فأحبب في الله مَن يعينك على طاعة الحق تعالى، ولا تعلق قلبًا عرف مولاه بمحبة من سواه.

قال بعض العارفين: "مَن أحب بقلبه مَن يموت، مات قلبه قبل أن يموت" مات قلبه لأن حياة القلب حب الله.

فرّغ القلب مِن حب غيره ليبقى حيًا بحبه-سبحانه وتعالى-وما مِن أحدٍ في الدنيا إلا وهو فيها كالضيف، وما من شيء في يديه إلا وهو عارية، فالضيف مُرتحل، والعارية مردودة.

وكما أنَّك تعلم بأن الأشياء التي تحبها ستفارقك، فعليك أن تحب مَن لا يفارقك.

قال أحدهم: "وفراق المحبوب شديد، فينبغي على العاقل الواعي أن يحب من لا يفارقه وهو الله تعالى، ولا يحب من يفارقه وهي الدنيا، فإنه إذا أحب الدنيا كره لقاء الله، فيكون القدوم بالموت على ما يكره، والفراق لما يحب، وكل من فارق محبوبًا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وأنسه، وأنس الواجد للدنيا أكثر من أنس فاقدها".

حين يجد الإنسان الدنيا ثم يفقدها، يكون ألمه أشدّ من الذي لم يجدها، فلا تكثر تعلقاتك، فتجد نفسك في لحظة رهينًا لها لا تستطيع أن تعايش الحياة مع فقدها. وقد قيل: "لابد لكل إنسان مِن مجاهدة فراق ما يحبه وما به فرحه من أسباب الدنيا، وذلك يختلف باختلاف الناس؛ فمنهم من يفرح بمال، ومنهم من يفرح بجاه، ومنهم من يفرح بقبول في الوعظ، أو بعزّ في القضاء والولاية، أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة، والحل في مثل هذا أن يترك أولًا ما به فرحه، ثم يراقب الله حتى لا يشتغل فكره إلا بذكره، ويوقف أفكار شهوته ووسواسه حتى يقمع مادته، ويلزم ذلك بقية العمر، فليس للجهاد آخر إلا الموت".

---

(1) [سورة الزخرف: 67]

قال العلماء: "القصد بهذا-وأحبب من شئت فإنك مفارقه-تأديب النفس عن البطر والأشر والفرح بنعيم الدنيا، بل بكل ما يزيله الموت، فإنه متى علم أن مَن أحب شيئًا يلزمه فراقه، ويشقى لا محالة بفراقه، شَغَلَ قلبه بحب مَن لا يفارقه وهو ذكر الله، فإن ذلك يصحبه في القبر فلا يفارقه، وكل ذلك يتم بالصبر أيامًا قلائل، فالعمر قليل بالإضافة للحياة الآخرة، وعند الصباح يحمد القوم السرى، وتذهب عنهم عمايات الكرى، كما قال علي-رضي الله عنه-.

وصفة عملية لمنع حدوث التعلق:

1. تحسَّس القلب والنظر إلى متعلقاته:

من المعلوم أن الناس ليسوا سواء في تعلقهم؛ فمنهم من يتعلق بالأصدقاء أو الجيران، ومنهم من يتعلق بالزوج أو الأبناء، ومنهم من يتعلق بالمال أو البيت أو الوظيفة أو المرتبة عند الناس، وقد نجد من النساء من تكون نقطة تعلقها مظهرها، فتجدها متعلقة بالمرآة، مفتونة بهذا الأمر[1]، وقد تتعلق المرأة بالمدح، فتجدها تطبخ وتطعم الجيران، أو تفعل الأعمال الخيرية، لأجل أن تمتدح، وإن لم تتلق المدح مرضت، وأصبحت طريحة الفراش!

هذا التحسس للمتعلقات لا بد منه للبدء بمرحلة العلاج.

(1) وهذا لا ينافي العناية بالمظهر؛ لكن المقصود هو الفتنة والتعلق.

2. النظر لممارسات التعلق وكبح النفس عنها:

ينتج عن التعلق مشاعر وأعمال يلاحظها الإنسان في نفسه، فتجده مثلا حين يتعلق بشخص يريد أن يكلمه باستمرار، ويرغب بالاجتماع به دائما، ويشعر باسوداد الدنيا حين يغادر، ولو تعلقت المرأة بزوجها تجدها تحقق معه عند دخوله وعند خروجه، وتفتش جواله، وتوسوس وتفكر أين كان، ومن رأى؟!

هذه بعض ممارسات التعلق التي لا بد من كبحها، لأجل رد النفس للوضع الاعتيادي المريح.

3. إشغال النفس بطاعة الله:

لقد خلقنا الله تعالى بخلقة تتعلق وتعظم وتشتاق، وذلك كي يصرف هذا التعلق والتعظيم والشوق إليه، فإذا صُرف إلى غيره، ثم بدأ الإنسان يعالج نفسه من هذا المرض؛ فلا يظن أبدا أن الحل بعد كبح النفس هو البحث عن شخص آخر ليحل محل الأول؛ فيتحول الأمر إلى سلسلة من التعلقات، ولا يظن أن الحل في البحث عن نوعٍ آخر من المتعلقات التي لا بد من فراقها.

ألا إن من أعظم الغبن الذي يوقعه الإنسان على نفسه هو أن لا يمتلئ بحقيقة أن الله وحده هو المحبوب الذي لا يفارق، هو الحي الذي لا يموت، هو القريب المجيب، هو الرحيم الودود، وهذه الحقيقة هي من أعظم ما يدل على استحقاقه سبحانه لصرف هذه المشاعر إليه، وسبيل العبد الذي يريد التشرف بشرف التعلق به وحده أن يملأ مكان الفراغ في قلبه بدوام ذكر الله؛ فإن الذكر سبب للمحبة، وعلامة عليها أيضا.

لا بد أن يفرَّغ المكان الشريف للتعلق الشريف!

أما التعلق بالمال والأشياء؛ فقد ذكر نبينا-صلَّى الله عليه وسلَّم-ما يعين على العلاج منه: عَنْ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ-صلَّى الله عليه وسلَّم-فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: ((يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى))[1].

دلّ هذا الحديث على ما في استشراف النفس من سوء، وإنه لمفهوم يحتاج من التربية للنفس ما يحتاج، كي تُعوّد أن تأخذ الأشياء غير متعلقة، ولا متطلعة مستشرفة، والمتأمل لأحواله يرى أنه كثيرا من الأشياء التي يتمناها، ويديم التفكير فيها لا تأتيه، أو تأتيه فلا يسعد بها، وكثيرا مما لا يفكر فيه يأتيه وينتفع به، ويبحث مستغربا عن تفسير لهذا فلا يجد، وهذا الحديث يفسر له هذه الحقيقة:

أي شيء يستشرفه الإنسان ويتعلق به لا يبارك له فيه، حتى لو وصله، وإنك لتلاحظ في الحياة أشخاصا لحوحين يتطلبون ويدققون في مواصفات ما يريدون اقتناءه من الأشياء؛ حتى إذا ما جاءه طلبه فقد الرغبة فيه، أو عثر فيه من العيوب ما يزهده فيه، بخلاف الراضي بما قسم له؛ فإنه يبارك له فيه، وفي كلا الحالين سيأتي لكل منهما ما كتب له، إلا أن الأول نصيبه مبارك، والآخر غير مُبارك.

4. تخويف النفس بمفهوم مهم وهو أن الأخلاء سيصبحون أعداءً:

من أكثر الأمور التي يسعى المرء في الدنيا جاهدا ليتجنبها معاداة من يحب، وإن أشق المعاداة هي معاداة يوم القيامة، قال تعالى: {ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ}، وإن المتقين لا يجعلون علاقاتهم بأحبابهم تصل إلى درجة التعلق التي لا تنبغي إلا لله، ويعلمون أن هذا سيحولها لمصدر عذاب في الدنيا والآخرة، ويشفقون أن تنقلب إلى عداوة في الدنيا والآخرة، وفي الحقيقة هناك الكثير ممن يعالج نفسيًا وأحيانًا بدنيًا مِن آثار انقطاع التعلّقات!!

(1) رواه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، 1472)

بعض الشباب يتعلق بأحد زملائه، ثم ينقلب هذا الزميل عليه مرة واحدة، ويتحول الوصل إلى جفاء؛ فيشتكي زميله للرائح والغادي لعل قلبه يعود، ولا يعود، فيدخل في حالة اكتئاب، ويضيع من نفسه ما يضيع على مخلوق مثله، ولو كانت قاعدة (أحبب من شئت فإنك مفارقه) مستعملة؛ لما حصلت كل هذه الخسارات.

شأن العلاقات خطير، ومما ينبغي الانتباه له جيدًا أنها قد تبدأ سوية وتنتهي غير سوية، ومن ذلك:

- علاقات الأخوّة في الله، فقد تلتبس الأمور أحيانًا؛ فيكون هناك نوع مخادعة من النفس، حيث يتوهم الإنسان أن هذا حب في الله، وهو غير ذلك؛ وأحيانًا يصل الخداع إلى **اختراع العمل الصالح** لأجل حصول الاجتماع، وليس لأجل الله**!!**
- العلاقات الزوجية التي هي أشد العلاقات وثوقا، ومع ذلك قد تنحرف، وذلك حين تصل لدرجة التعلق، فتجازى المرأة بزوجها.
- العلاقات مع الأبناء أيضا قد تنحرف إلى التعلق؛ فتجد الأم مثلا التي فقدت ولدها من سنوات طوال تبكي عليه بطريقة توحي بأنه مات بالأمس، وقد أُنعم عليها بزوج وأبناء غيره؛ فتهمل البيت والزوج وبقية الأبناء بسبب شدة تعلقها به الذي جعله كل شيء بالنسبة لها، وجعلها في حالة لا تستطيع العيش من دونه، وكأنه الحياة كلها**!**

وبعض النساء إذا مر عليها خاطر الموت مرورا؛ تشعر أنها تفضل أن تموت ولا تفقد أحدا؛ لأن فقده سيوصلها للجزع**!**

هناك حالة طبيعية لا ينبغي تجاوزها، وليعلم أن المصيبة ينزل معها الجبر؛ فاقبل جبر الله.

وللتخفيف من شدة الخوف على الأبناء لا بد من تعلّم أن الله هو الكافي، وأنه هو الوكيل والحفيظ-سبحانه وتعالى-؛ وأننا لا نملك لهم ضرا ولا نفعا حتى لو كنا معهم في قلب الأحداث، قال تعالى: {وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}[1].

(1) [سورة يونس: ١٠٧]

هذا الفهم لعجزنا يجعلنا نعي أن خير ما نفعله لهم هو أن نسأل الله باسمه الحفيظ أن يحفظهم، وأن نغرس في نفوسهم غرسا أنه لا نافع لهم إلا الله؛ فنوفر عليهم الكثير من التجارب الفاشلة التي تصرف فيها المخاوف والتعلّقات والآلام في غير محلها، ويعيشون الحياة بالطريقة الصحيحة المريحة من صغرهم[1].

---

(1) هذه قصة امرأة في الحج، تحكي قصة خطئنا الفادح مع فلذات أكبادنا:

تقول: بينما الناس على تلال منى؛ إذ هبت رياح شديدة أفقدتهم أمنهم، وكادت أن تقتلع عليهم خيامهم، فأتتها طفلتها ذات السبعة أعوام، مقبلة مهرولة خائفة من أصوات الرياح، وما تفعله بالخيام، فأمسكت بيدها بشدة، وسمعت بأذنيها قول الأمهات لأبنائهن: (لا تخف أنا معك، لا تخف أنا معك)؛ قالت: أما أنا؛ فقد وفقني الله وهداني، فقلت لها: لا تخافي؛ فالله معنا، وكلما ازدادت تمسكا بي؛ رددت عليها: أنا لا أنفعك، لا ينفعك إلا الله، الله يحفظك ويحفظنا جميعا؛ فَنَفَعَهَا الله، وحفظها، واستكانت الطفلة.

مثل هذا الدرس في مثل هذا الموقف سيكون له من الأثر في نفوسهم فوق ما نتصور، وهذا لا يعني أن ننتظر مواقف الشدة لنغرس فيهم؛ بل في الرخاء والشدة لابد أن يتبين لهم أنه لن ينفعهم إلا الله، وليس كما يقول البعض لأبنائهم: (طالما أنا أتنفس الهواء؛ لا تخافوا مِن شيء)! (ما دمتُ أنا موظفا؛ لا تخشوا الفقر)! إلى آخر ما عندنا من هذه الجمل التي تربي التعلق بغير من هو أهل للتعلق.

الجملة الثالثة من الحديث: ((وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ))

الجزاء من الأمور الفطرية، فالإنسان مفطور على عدم تساوي المحسن والمسيء، والمعطي والمانع، وهذا حكم أحكم الحاكمين في سورة الجاثية: {أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ} [1].

لا يمكن أن يكون المحسن والمسيء سواءً، ومن يحسب ذلك فساء ما يحسب!

لا يستوون في جزاء الدنيا، ولا يستوون في جزاء الآخرة، **فمن جزاء الآخرة** ما قال الله تعالى في سورة الزلزلة: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ} [2].

"وهذا شامل عام للخير والشر كله؛ لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء وجوزي عليها، فما فوق ذلك من باب أولى "[3].

وقال تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} [4] .

فهؤلاء الذين أحسنوا؛ (لهم الحسنى) وهي الجنة، (وزيادة) وهو النظر إلى وجه الله الكريم، وهو الشكور الغفور يعطي على العمل القليل الأجر الكثير.

وقال تعالى: {وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} [1].

(1) [سورة الجاثية: ٢١]

(2) [سورة الزلزلة: ٦ – ٨]

(3) تفسير السعدي لسورة الزلزلة.

(4) [سورة يونس: ٢٦]

وهؤلاء الذين كسبوا السيئات؛ فجزاؤهم سيئة مثلها، والله لا يظلم أحدا شيئا.

أما جزاء الدنيا؛ فالله يقول: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجا}(2).

قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجًا من كل شيء ضاق على الناس.

وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم-: ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ...))(3).

وفي قصص الأنبياء يتضح جزاء إحسان موسى –عليه السلام-: {فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ}(4)، فجاءته إحداهما بما جاءته من جزاء الله الكريم على الإحسان!

وانظر ليوسف –عليه السلام–يقول له صاحبا السجن: {إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ }(5) فهل ضاع الإحسان؟

يقول تعالى في آخر القصة: {إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ}(6).

لكن ينبغي التنبه هنا إلى نقطة مهمة، وهي أنه قد يحسن المرء ثم يجد نكرانًا من الناس؛ فيظن كما يظن الجاهلون بالله بأن الإحسان يضيع، وينسى الحقيقة التي تقول: (**وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ**)، فلا يمكن أن تفعل معروفًا ويضيّعه الله.

---

(1) [سورة يونس: ٢٧]

(2) [سورة الطلاق: ٢]

(3) رواه مسلم في صحيحه (كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، 2808)

(4) [سورة القصص: 24]

(5) [سورة يوسف: 36]

(6) [سورة يوسف: 90]

وواقع نكران المعروف من قبل الناس يُفسَّر بأحد ثلاثة أمور:

1-اختبار مِن الله لصدق العبد في إرادة وجهه تعالى:

وهذا مثال يوضح ذلك: عنده خادم فقير، قد وقعت به ملمة، فأعطاه إشفاقا منه على حاله، وفي الصباح طلب منه عملًا؛ فاعتذر متعللا بمرضه!

بعض الناس يضع تفسيرا لمثل هذا الحدث بأن جزاء الإحسان في هذا الزمن هو الإساءة، والحقيقة أن هذا قد يقع اختبارا لصدق المنفق، هل كان إنفاقه في سبيل الله، أم في سبيل غيره؛ فإذا تمرد الطرف الآخر أو لم يتمرد؛ لا تعد على صدقتك؛ فتبطلها بالمنّ والأذى، سواء بلسانك أو بقلبك!

2-قد يكون الإحسان بدسيسة:

كأن يُحسن لشيء يريده من وراء الإحسان، والجزاء أن الله يعامله بنقيض قصده، والشيء الذي كان ينتظره لا يأتيه.

3-قد لا يُحسَن للمحسن حفظًا لأجره يوم القيامة.

ثم إن قوله-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((**وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ**)) يشمل الضد أيضًا؛ فما يعمله الإنسان مِن انتقاد وسوء، سيذوق مُرّه، وسيجازى عليه[1]. وكم عاش الناس مواقف يتبيّن فيها هذا المعنى.

---

(1) مثال ذلك: فتاة متحجبة تنتقد المتبرجات، وتعيب عليهن قلة دينهن، وليس شرطًا أن يكون كلامًا مسموعًا، إنما يكفي أنه دائر في القلب، هذا الانتقاد ستُجازى به، ولا تحسبن هذا حرقة على الدين، فالحرقة على الدين لها شروطها التي من أهمها الخوف على النفس، إنما هذا دلالة على الكبر والعجب، ومؤشر على أن هذا المنتقد يظن أنه اهتدى بنفسه، وأنه يثبت على الهداية بنفسه، وكأنه لا يعي أن الله أمرنا بطلب الهداية في كل ركعة، وكأنه لم يسمع بأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. سارع بالحكم على الخلق وكأنه مكلف بهم، وفي الحقيقة: نحن مكلفون بالحرقة على دين الله وبالأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء لهم، أما الحكم عليهم فليس من اختصاصنا أبدًا، ولابد أن نجازى!

ولذلك لابد من الاستعجال بالتوبة لأن التائب يُمحى عنه آثار ذنبه، ونحن نقول في سيد الاستغفار: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ))[1] أستعيذ بك من شر ما صنعت، أي: ألتجئ إليك كي تدفع عني أثر ما صنعت، فإن لِما صنعتُ آثارًا في الدنيا وفي الآخرة.

ومما يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ}[2].

ويؤيده ما ورد في البخاري في كتاب الرقاق في باب الأمل و طوله، قوله-سبحانه وتعالى-: {فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ}[3] أي أن المرء لابد سيجازى، وهذه المجازاة إما أن تكون في الدنيا أو في الآخرة بأن يزحزح عن النار.

وفي المقابل يقول تعالى لغير أهل الإيمان: {ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ}[4] يعني سيرون جزاء ما عملوا.

وقد قال تعالى: {فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ}[5] فالمقياس بمثاقيل الذرّ! وليس هناك ذرة تذهب، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، في الدنيا أو في الآخرة.

(1) رواه البخاري في صحيحه (كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، 6306)
(2) [سورة الانشقاق: 6]
(3) [سورة آل عمران: 185]
(4) [سورة الحجر: 3]
(5) [سورة الزلزلة: 7]

الجملة الرابعة في الحديث: ((واعْلَمْ أَنّ شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ))

فيه إشارة إلى تعويض المؤمن عما يفوته من شرف الدنيا المنهي عن الحرص عليه، فيرتفع ذكره ويشرف قدره بقيام الليل.

ما وجه كون قيام الليل شرفًا؟

الشرف في اللغة: العلو، وشرف كل شيء أعلاه.

يقول أحد العلماء: فلما وقف في ليله وقت صفاء ذكره متذللًا متخشعًا بين يدي مولاه رفع قدره عند ملائكته وخواص عباده بعز طاعته.

إن لكل عبد صيتًا في السماء كما جاء في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((مَا مِنْ عَبْدٍ إلا لَهُ صِيتٌ فِي السَّمَاءِ، فَإِذَا كَانَ صِيتُهُ فِي السَّمَاءِ حَسَنًا وُضِعَ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا كَانَ صِيتُهُ فِي السَّمَاءِ سَيِّئًا وُضِعَ فِي الأَرْضِ))[1] وقيام الليل يجعل للعبد صيتا في السماء عند الله وملائكته، فإذا حصل هذا الصيت في السماء؛ أُلقي له القبول في الأرض، فيأتي شرف الدنيا من شرف المكانة عند الله.

وخصّ قيام الليل دون غيره؛ لأنه بعيد عن الرياء وملاحظة الناس؛ ولهذا لا بد للمؤمن إن كان بينه وبين الله خبيئة عمل أن يحرص على إبقائها سرًا بينه وبينه، وأن لا يفشيها لا تصريحا ولا تلميحا، وإذا أراد أن ينصح؛ فليعرض عليهم أحاديث فضل قيام الليل، وليخبرهم عن فعل الصحابة والتابعين، دون أن يحدث عن نفسه[2].

(1) أخرجه البيهقي في الزهد، وأخرجه أيضًا البزار كما في مجمع الزوائد. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. والطبراني فى الأوسط، وابن عدي، وقال: حديثه لا بأس به، وهو صدوق، ولم أجد في حديثه منكرًا.

(2) وإن سأله سائل عن قيامه لليل؛ فليدرّسه درسًا عنوانه: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))، تماما كما يفعل حين يسأل عن عمره، أو راتبه!

فضل قيام الليل والطاعة فيه:

1. قيام الليل من أفضل الطاعات: إن قيام الليل من أفضل الطاعات بعد الصلوات المفروضات. عن أبي هريرة–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((أَفْضَلُ الصِّيَامِ، بَعْدَ رَمَضَانَ، شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلَاةُ اللَّيْلِ))[1]، وعن صهيب بن النعمان–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((صَلَاةُ الرَّجُلِ تَطَوُّعًا حَيْثُ لَا يَرَاهُ النَّاسُ تَعْدِلُ صَلَاةً عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ))[2].

2. تكفير السيئات: قال النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–لمعاذ–رضي الله عنه–: ((أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ)) قَالَ: ثُمَّ تَلَا: {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٧)}))[3].

3. قرب الرب من عبده: عن عمرو بن عبسة–رضي الله عنه–أنه سمع النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–يقول: ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ))[4].

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب الصيام، باب فضل صيام المحرم، 1163)

(2) رواه أبو يعلى بسند حسن.

(3) [سورة السجدة: 16–17]

(4) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

4. **شهود لنزول الرحمن**: عن أبي هريرة–رضي الله عنه–أن رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–قال: ((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟))[1].

5. **طرد الغفلة عن القلب**: عن عبد الله بن عمرو–رضي الله عنهما–قال: قال رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ))[2].

6. **يورث سكنى غرف في الجنان**: عن علي–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا))، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ))[3].

7. **الفوز بمحبة الله تعالى**: عن أبي الدرداء–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ–عزَّ وجلَّ–، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ،–وذكر منهم–وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَذَرُ شَهْوَتَهُ فَيَذْكُرُنِي وَيُنَاجِينِي وَلَوْ شَاءَ لَرَقَدَ))[4].

---

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري (1145) ، ومسلم (758).

(2) أخرجه أبو داود (1398)، وابن خزيمة (1144)، وابن حبان (2572) وصححه الألباني.

(3) رواه الترمذي بسند حسن (1984) وصححه الألباني.

(4) رواه الطبراني بسند حسن.

8. قيام الليل سبب لمباهاة الملائكة: عن ابن مسعود رضي الله عنه: عن النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–قال: ((عَجِبَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ رَجُلَيْنِ: مِنْ رَجُلٍ ثَارَ مِنْ لِحَافِهِ وَفِرَاشِهِ مِنْ بَيْنِ حَيِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا، قَامَ مِنْ بَيْنِ فِرَاشِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ حَيِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي))[1].

9. إجابة الدعاء: عن عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلاَتُهُ))[2].

10. أجر القائم على حسب نيته: عن أبي الدرداء–رضي الله عنه–عن النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–قال: ((مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ، وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ فَيُصَلِّيَ مِنَ اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّى يُصْبِحَ، كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ))[3].

11. قيام الليل طريق الصالحين: عن أبي أمامة–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ))[4].

---

(1) رواه أبو يعلي بسند حسن.

(2) رواه البخاري في صحيحه (كتاب التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى، 1154)

(3) أخرجه النسائي (1787)، وابن ماجه (1344)، وصححه الألباني.

(4) أخرجه الترمذي (3549) واللفظ له، وأبو نعيم في ((الطب النبوي)) (115)، والبيهقي (4833) باختلاف يسير.

12. تثبيت القرآن في الصدر: عن ابن عمر–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله–صلَّى الله عليه وسلَّم–: ((وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ))[1].

13. الفوز بالجنان ورضا الرحمن: عن عبد الله بن سلام–رضي الله عنه–قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ))[2].

صفة قيام الليل:

تتبين الصفة من خلال فهم معنى القيام...

القيام: هو انتصاب القامة، ولما كانت هيئة الانتصاب أكمل هيئات من له القامة وأحسنها؛ استعير ذلك للمحافظة على استعمال الإنسان نفسه في الصلاة ليلًا، فمعنى قيام الليل أي المحافظة على الصلاة في الليل، وعدم تعطيله باستغراقه في النوم أو اللهو، فأصبح قيام الليل من الدوام.

قال أحد العلماء: "قام على الأمر دام وثبت".

إذًا؛ هذا الشرف يحصله المؤمن بالمداومة، وعلى ذلك نسأل عن أحوالنا: ما الذي يشغلنا عن المداومة؟ النوم، أم اللهو، أم السهر، أم لم يصل تصديق وعود الله إلى أفئدتنا بعد؟!

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، وكراهة قول نسيت آية كذا، وجواز قول أنسيتها، 789)

(2) رواه ابن ماجه (1105) وصححه الألباني.

أسباب تعين على قيام الليل:

1) أول أمر وأهمه: الشعور أن من نعمة الله على خلقه معاملتهم بهذه الطريقة:

إن مما يكسب قيام الليل الشرف أن الله-عزَّ وجلَّ-ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له؟ مَن يسألني فأعطيه؟ مَن يستغفرني فأغفر له؟

وإن أقل ما ينبغي تجاه هذا الأمر العظيم هو الشعور بمِنّة الله علينا بذلك، وقد قال تعالى: {لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[1] والزيادة في هذا الموطن زيادة الانتفاع بهذا الذي شكرتم لأجله، فتحمد الله-عزَّ وجلَّ-وتشكره على أنه جعل هذا الثلث الأخير وقتًا لنزوله-سبحانه وتعالى- وأنت معتقد أنه الغني غنى مطلقًا، وأنت الفقير إليه فقرًا ذاتيًّا، فتأمل في المسألة وخاطب نفسك: أنا الفقير، وهو سبحانه الغني، ثم مع غناه ينزل في الثلث الأخير وينادي؟!

إن من أعظم ما يعين به المرء نفسه على القيام هو مراجعة اعتقاده بصفات الله تعالى باستمرار، ومن هذه الصفات التي يتيقن بها أنه- سبحانه وتعالى-ينزل نزولًا يليق بجلاله، وأنه ينادي خلقه، مع اليقين بأنه في غنى عنهم، وإنما هذا النزول من آثار ودّه لهم؛ يناديهم وهو مستغنٍ عنهم.

والمتأمل بهذه النعمة المفكر فيها سيشق عليه أن ينام وقت هذا النزول الإلهي؛ فمَن الذي يترك وقت هذا الإنعام من ربه؟!

وكيف لا يتشوق العبد أن يقف بين يديه، ويرى كيف يقع النور في قلبه، وكيف تُزاح الهموم عن نفسه، ومن ذاق لذة القيام عجز لسانه عن التعبير عنه، وعرف عظيم نعمائه على عباده بهذا النزول الإلهي، وإنه لكرم يعجز القلب ويحتار بأي طريقة يشكره، ولو اعتقد القلب يقينا

(1) [سورة إبراهيم: 7]

نزوله–سبحانه وتعالى–واعتقد يقينا نداءه لخلقه؛ ما كان يفوته وقت النداء، ولكن يا حسرة على العباد أثقلتهم الدنيا وأحمالها عن هذا الاعتقاد، وأنى لثقيل الحمل أن يقوم؟!

أما إن خسرت هذه النعمة، وفاتك هذا الفضل؛ فلا أقل من عبادة مقت النفس على هذا الثقل عن القيام؛ إذ أن الثقل عن المكرمات ليس من شيم الكرام، ومن أراد العلا سهر الليالي:

تريد العز وأنت تنام ليلا ** يغوص البحر من طلب اللآلي!

2) تعبُّد الله–عزَّ وجلَّ–بعبادة الاستعانة، وعدم الاعتماد على الأسباب:

المؤمن المستعين بالله لا يضع رأسه على وسادته وهو يمرر الأسباب على باله وكأنه ضمن بها القيام؛ فليس النوم مبكرا، وضبط ساعة التنبيه إلا أسبابًا يأخذ بها ولا يعتمد عليها، والأخذ بالسبب مطلوب والاعتماد عليه ممنوع؛ بل كثيرا ما تخذل الأسباب أصحابها، فلا تظن الخير يأتي من جهتها؛ إنما الخير من رب الخير، فعليه توكل، ثم نم.

ولا تنسَ أن (إياك نعبد) تأتي بعدها (إياك نستعين)؛ لهذا كان من أسباب قيام السلف للصلاة دون حاجة لمن يوقظهم هو حرصهم على دوام الاستعانة بالله.

استعن بالله على عباداتك، ومنها القيام؛ لأنك إن لم تفعل فستدخل في معركة مع نفسك، ثم تنام وتترك القيام.

3) الإكثار مِن الاستغفار وذكر الله:

كلما أكثر العبد من الاستغفار وذكر الله كلما فُتحت له أبواب الطاعات، والذكر بنفسه أكبر العبادات، قال تعالى: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}[1]. والقيام من هذه الطاعات.

الجملة الخامسة في الحديث ((وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ))

العزَّة مطلب لكل نفس أبيَّة، وإن من أعظم أسباب نيل العزة التعلق بمن بيده العزَّة سبحانه، وترك التعلق بمن دونه، ممن لا يزيد التعلق بهم إلا ذلًا وهوانًا، قال تعالى في العزة: {وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}[2]. وقال تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ}[3]، وقال تعالى: {بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعا}[4].

وروى البخاري ومسلم في الاستغناء عن الناس حديث أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه–: أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال: ((مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ))[5].

---

(1) [سورة العنكبوت: ٤٥]

(2) [سورة المنافقون: 8].

(3) [سورة فاطر: 10]

(4) [سورة النساء: 138، 139]

(5) رواه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، 1469)

ويؤيد هذا ما أخرجه مسلم والترمذي عن عبد الله بن عمرو عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))[1].

وروى الطبراني في معجمه الكبير من حديث ابن عباس-رضي الله عنه-أنه قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَلَوْ بِشَوْصِ سِوَاكٍ)) [2].

وقال عمر-رضي الله عنه-: "إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، إنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم".

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل، ويقول: "من قنع بهذا لم يحتج لأحد"!

الاستغناء عن الخلق يبدأ من كفّ البصر عمّا في أيديهم؛ فإنه لا بد من كف البصر ليكف القلب عن التعلق، والبصر من أكبر المشاكل،-يشترك في هذا الذي يملك والذي لا يملك-والذي يمد عينيه يعرض استغناءه عن الخلق للهتك؛ فيصبح وقد استبدل عز غنى النفس بذل الحاجة إلى الخلق، وما هذا من شيم المؤمن المؤثر للآخرة على الدنيا، قال تعالى مخاطبا نبيه-صلى الله عليه وسلم، وكل مَن يصلح لهم الخطاب-: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}[3]، و (لا تمدن عينيك) تشمل ما متّع الخلق به من ملبوس، ومفروش، ومتاع أيًّا كان، لا تتبعه بعينيك، فإنما هو متاع عما قليل زائل، وإنَّ تعلُّق البصر به يتبعه تعلق القلب، وإن تعلق القلب به يعني إنزاله عن مرتبة الشرف التي خلق لأجلها!

خلق الله القلب ليكون محلا لحبه، وتعظيمه، ونظره؛ فما بالنا نرخصه ونجعله لما لا يساوي عنده جناح بعوضة؟!

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، 1054)

(2) أورده الهيثمي 94/3، وقال: رواه البزار والطبراني في "الكبير"، ورجاله ثقات. اهـ. والشوص: الغسْلُ والتنظيف، وبابه قال، يقال: هو يشوصُ فاه بالسواك. وفي "النهاية": ولو بشوص سواك، أي: بغُسالته، وقيل: بما يتفتت منه عند السواك.

(3) [سورة طه: 131]

لو تيقن العبد أن عزه يكمن في لحظة رده لبصره، ولسانه، وقلبه عن كل ما عند الخلق؛ لما أذن لهم أن يتجولوا متتبعين أحوال الخلق[1]. تاركين الغالي من مهامهم التي بينها الشرع؛ فما خلقت العينان إلا للتدبر والتفكر فيما يزيد الإيمان، وليس فيما يعلق بالدنيا، وما خلق اللسان إلا ليكون أداة عظيمة للتعبير عن ذاك الإيمان، وأما القلب؛ فكل الشأن للقلب، هو الأخطر والأغلى، وقد خلق لما هو أعلى وأغلى!

استحِ من النظر إلى ما عند الناس يجعلك الله عزيزًا، وكلما استغنيت؛ أغناك الله؛ فمَن يستعفف يعفه الله، ومَن يستغن يغنه الله.

ربى النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–أصحابه على الاستغناء عن الناس، وعدم طلب الحوائج منهم؛ بل كان يبايع بعض أصحابه على هذا المفهوم العظيم؛ فعَنْ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الأَشْجَعِي، قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ–صلى الله عليه وسلم–تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً فَقَالَ: ((أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ)) وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: ((أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟)) فَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ ((أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟)) قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: ((عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَتُطِيعُوا–وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً–وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا)). فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ[2].

---

(1) يظن بعض الناس أن تقليب البصر في ساعات الآخرين، وخواتمهم، وأثاث بيوتهم شيء طبيعي، وفي حقيقة الأمر هو ليس طبيعيا؛ فإن النبي –صلى الله عليه وسلم –وهو نبي أُمر ألا يمد عينيه إلى ما مُتع به غيره، وكذلك أُمرنا نحن بذلك، وقد يظن أن السؤال عن ذلك أيضا طبيعي، وهناك مَن يقول أنا أسأل الناس حتى أوفر بحثي في السوق!

نقول: لو أعطيت النفس هواها في اختلاق الأعذار؛ ستأتي بالكثير منها لتبرر هذا المد في البصر والقلب، وهي غافلة عن أن التهاون بهذا الأمر، ووضع الأعذار الكثيرة له سبب في أن تفقد عزّها الذي هو من عطايا الله لها. وهذا يختلف عن الحسد، فهذا مجرد مد للبصر، وتقليب للعين في الدنيا.

(2) رواه مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، 1043)

وفي الختام نقول:

كل ما تقدم عن الحياة قد وصفه لنا نبينا-صلَّى الله عليه وسلَّم-بثلاث جمل من جوامع كلمه:

1. **عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ.**
2. **وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ.**
3. **وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ.**

فالدنيا لا تخرج عن هذه الثلاثة: حياة يلحقها موت، ومحبوبات يلحقها فراق، وأعمال يلحقها جزاء.

ثم دُللنا على طريق نفعله؛ فنحصل به الشرف والعزّ.

الحياة رحلة سريعة، وسفر قصير، وبُلْغَة منغّصة، وفرصة خطيرة؛ فاجعلها على ما يحب الله ويرضى.

أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن ينفع بما ذُكر، والحمد لله، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

فهرس الموضوعات